فكاهات

رواية

تقلّبات القدر[1]

كان لوجيهٍ من نبلآء الانكليز ابن وحيد يدعى ارنست لهُ من العمر عشر سنوات ولوالدهِ من الاملاك الواسعة والغنى الوافر ما لايحصى . وكان الاب قد طعن في السن وشعر بقرب وفاتهِ فاوصى بجميع مالهِ لابنهِ الوحيد ارنست وكان لهُ اخٌ يقال لهُ ادورد فاقامهُ وصياً على ابنهِ من بعدهِ ولم يكن العم في منزلة الاب بالغنى والجاه فاوصى لهُ ايضاً بمبلغ الفي جنايي ياخذها سنوياً في مقابلة اعتنآئهِ بارنست الى ان يبلغ رشدهُ ويستولي على تركة ابيهِ . ولما مات اللرد المذكور اخذ العمّ في تدبير املاكهِ واموالهِ فرأى من سعة الثروة وامتداد السلطة ما شوقهُ الى الاستيلآء على املاك اخيهِ ولكي يتيسر لهُ ذلك عمد الى ابعاد ارنست ما استطاع والانتفاع بما في يديهِ مدة غياب الوارث فارسلهُ الى مدرسةٍ في المانيا ليتلقى علومهُ فيها . وكان ارنست ذكياً متوقد الفؤاد فلم يلبث ان برع في جميع العلوم التي تعاطاها وكان اشدّ ميلهِ الى الموسيقى فرغب الى رئيس المدرسة ان يقصر درسهُ على هذا الفن فامتنع من اجابتهِ الى ذلك بايعاز عمهِ وقال يجب عليك ان تستكمل جميع دروسك

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

اولاً ومتى انهيتها فلك ما تحب . ولما اتمّ ارنست دروسهُ كما امرهُ عمد الى درس الموسيقى فنبغ فيها حتى صار من المعدودين بين اهلها وكان جملة ما قضاهُ من الزمن في المانيا اربع عشرة سنة . واشتاق ارنست الى وطنهِ وقد رأى انهُ حصل على كل ما يؤمل تحصيلهُ في المدرسة فطلب الى رئيسهِ ان يأذن لهُ في الرجوع الى انكلترا وكان رئيسهُ قد تلقى الاوامر من عمّهِ بابقآء ارنست في المانيا ما استطاع فمنعهُ مراراً واخيراً كتب ارنست الى عمهِ يستأذنهُ في العودة الى الوطن فلم يجبهُ الى ذلك وامرهُ بالبقآء هناك الى ان يطلبهُ

واتفق ان ارنست دخل يوماً الى غرفة الرئيس ليكلمهُ في الامر فرأى على مائدتهِ رسالةً مفتوحة فعرف للحال انها من عمهِ فلم يتمالك من النظر اليها فاذا هي الى رئيس المدرسة يقول لهُ فيها انك لا تجهل ان ارنست اذا عاد الى هنا كان اول ما يفعلهُ انهُ يستولي على جميع ميراثهِ وأُحرَم انا جميع ما اتمتع بهِ الآن فاجتهد في ابقآئهِ بعيداً عني وزيّن لهُ السفر الى الهند او الصين او الجحيم بشرط ان لا يأتي الى انكلترا ولك مني ما تحبّ . فلما وقف ارنست على ذلك السر اظلمت الدنيا في وجههِ وادرك مقاصد عمهِ السيئة فعقد النية على الرجوع الى انكلترا وعلم ان الرئيس لا يأذن لهُ في ذلك فعزم على الفرار خفيةً وجعل يستعد لذلك فرتب كتبهُ وملابسهُ وسائر متعلقاتهِ ووضعها في صناديق وعنونها باسمهِ ثم اغتنم الفرصة في ليلةٍ حالكة السواد فخرج من المدرسة بملابسهِ فقط وبعض النقود التي كان قد جمعها في سنتهِ الاخيرة حتى اذا صار خارج المدرسة اخذ يواصل السير طول ليلهِ ولما لاح لهُ الصباح وجد نفسهُ في سهلٍ واسع لا انيس بهِ فلم يدرِ اين هو وخاف

ان يطول تيههُ قبل ان يصل الى مأوًى يلجأ اليه فلم يسترح الا هنيهةً قصيرة ثم عاود السير في ذلك القفر الى ان قاربت الشمس المغيب فرأى عن بعد في منتهى السهل بنآءً عالياً فقصدهُ ولما بلغهُ قرع الباب مراراً فسمع وقع اقدام ثقيلة ثم فُتح الباب فاذا رجلٌ ضخم الجسم غليظ الهيئة قبيح الصورة فاستوحش ارنست من منظرهِ وحدثتهُ نفسهُ ان يتركهُ ويعود في طريقهِ غير انهُ كان قد بلغ منهُ التعب والجوع فعدل عن فكرهِ وبش في وجه الرجل وكلمهُ بلطفٍ فاخبرهُ انهُ تائهٌ عن طريقه وطلب اليهِ ان يُؤويهُ تلك الليلة عندهُ . فقال حباً وكرامة وادخلهُ الى المنزل ثم صعد بهِ الى غرفةٍ علوية حيث يستريح وبعد قليل احضر لهُ طعاماً وشراباً فاكل وشرب ثم انطرح على سريرٍ هناك ونام

ولما انتصف الليل شعر ارنست بغتةً بيدٍ لطيفة تنبههُ وصوتٍ رخيم يناديهِ فافاق مذعوراً ثم انار مصباحاً فرأى امامهُ فتاةً لطيفة القوام بديعة الصورة فتعجب ارنست من وجود مثل تلك الفتاة في ذلك الموضع الموحش وكانت الدموع تترقرق من عيني الفتاة وهي تكلمهُ بصوتٍ واجف فقالت باللغة الانكليزية الفصحى اعذرني يا سيدي على دخولي اليك في مثل هذا الوقت فان للضرورة احكاماً . انني ارجو منك بل ابتهل اليك ان تغادر هذا المكان في الحال وتسرع في الخروج ما استطعت . فتعجب ارنست وقال ولمَ ذلك قالت انك هنا تحت خطرٍ عظيم وقد اشفقت عليك لانك من بني جنسي واني انصح لك واستحلفك بكل عزيزٍ عندك ان تسمع مني . قال ولكنني لا اعرف الطريق والليل حالك فلا اظن خروجي آمَن من بقآئي . فتوقفت الفتاة هنيهةً ثم قالت انا اخرج معك وأريك الطريق فاعجل ما

استطعت . ورأى ارنست الحاحها فنهض لساعته وانطلقت امامهُ من باب سرّي الى اسفل المنزل ثم فتحت الباب الكبير ولما خرجا منهُ اقفلتهُ بالمفتاح وجرت مسرعةً وهي تلح على ارنست ان يتبعها . وللحال سُمع على باب المنزل صوت ضرب عنيف فان الرجل كان قد شعر بهرب الفتى واسرع في اتباعهِ فوجد الباب مقفلاً من الخارج فاعمل فيهِ فأسهُ حتى كسرهُ وخرج في اثر الصاحبين شاتماً معربداً واطلق غدارتهُ مراراً . اما الفتاة فقادت ارنست الى منعطفٍ هناك واختفيا تحت صخر كبير وذهب الرجل وهو يعجُّ حتى ابتعد عنهما واوغل في ذلك البر

وفي تلك الفترة اخذت الفتاة تقص على ارنست حديثها فقالت انني ابنةٌ انكليزية من الأُسَر الشريفة في انكلترا توفيت والدتي على اثر مولدي وتزوج ابي ثانيةً فلما مات ارسلتني رابّتي الى دير الراهبات وبعد ان قضيت فيهِ مدة طويلة علمت ان رابّتي تعمل على اهلاكي فهربت من الدير وجعلت اطوف المدن والقرى حتى اوصلني سوء البخت الى يد هذا الرجل القاسي الذي كنتَ على وشك الوقوع في شركهِ فانهُ رجلٌ سفاكٌ قاتل ولصٌّ دنيء وهو لم يمس كرامتي قط ولكن اجبرني على البقآء عندهُ لاغري المسافرين على المبيت في منزلهِ حتى اذا ناموا قام اليهم وهم على اسرّة الراحة فقتلهم ودفن جثثهم في بئرٍ بالقرب من المنزل وسلب ما معهم من الثياب والمال والجواهر. فتضايقت جدًّا من وجودي عندهُ ولكنهُ كان يَقِظاً فلم يمكني الفرار ووددت ان اخبر الزوّار بالامر واسعى في خلاصهم وخلاص نفسي معهم فلم يمكني ذلك قبل الآن ولما علمت انك انكليزي ومن ابنآء وطني طمعت في النجاة

وجرى ما تعلمهُ . وعند ذلك سمع الاثنان وقع قدمي الرجل عائداً من بحثهِ وهو يتوعد ويتهدّد ومرّ بجانبهما فسترتهما الظلمة عن عينيهِ . ولما ابتعد عنهما عاودا المسير ورأى ارنست من لطف الفتاة ومشابهة حالتها لهُ ما جعل لها موضعاً من قلبهِ ولم يتم سفرهما حتى تعاهدا على الحب والزواج ورغب ارنست في تعجيل ذلك خوفاً على الفتاة من الظنة ولم يشأ ان يشهر نفسهُ باسمهِ قبل ان يصل الى انكلترا فعرّفها بنفسهِ تحت اسم المسترهرمن وكانت الفتاة تسمى باسم أليس . ولما وصلا الى اول مدينة آهلة اقترن بها اقتراناً شرعياً ثم لم يزالا سائرين حتى بلغا مدينة درمستاد فاكترى هناك منزلاً واحسن فرشهُ ورياشهُ وعزم على البقآء هنالك الى ان يصلح الامر مع عمهِ فيذهب الى مسقط رأسهِ بالاحتفال اللائق بلُردٍ مثلهِ . وكان يقضي معظم وقتهِ في محادثة أليس وملاطفتها واشرابها طباعهُ ومحبتهُ ثم عمد الى تعليمها الموسيقى فبرعت فيها وعلمها أُغنيّةً كان قد ألّفها ولم يكن عندهُ الذُّ من سماعها منها

ولما علم رئيس المدرسة بفرار ارنست اعلم الشُرَط ودقق البحث فلم يقف لهُ على اثر فارسل واخبر عم ارنست بذلك فلما بلغهُ الامر اظلمت عيناهُ وكتب الى رئيس المدرسة يعنفهُ على اهمالهِ ثم ارسل من يبحث لهُ عن ارنست لينصب لهُ شركاً جديداً . وبعد ان اقام ارنست بدرمستاد مدةً كتب الى عمهِ يخبرهُ بما فعل ويقول انني قد بلغت السن التي فيها استولي على ميراثي فتى تريد ان احضر لاتمام ذلك . ولو أن صاعقة وقعت على رأس العم لكانت اسهل عليهِ من ذلك ولكنهُ تجلد وكتب الى ابن اخيهِ يأمرهُ بالحضور في الحال وان يبقي الغرض من حضورهِ مكتوماً الى ان تتم المعدّات

لاعلان بلوغهِ سن الرشد وتسليمهِ ميراثهُ . فلما بلغ ارنست كتاب عمهِ عزم على الرحيل اليهِ واخبر زوجتهُ انهُ سيغيب عنها مدة اسبوعين فقط لقضآء اشغال ضرورية ولم يعلمها بحقيقة الامر فشقّ عليها فراقهُ جدًّا ولكنهُ اقنعها بوجوب ذلك واعدَّ لها من اسباب السرور والتسلية ما يدفع عنها ثقل اليأس مدة غيابهِ ثم ودعها وسافر . ولما بلغ لندن توجه توًّا الى بيت عمهِ من غير ان يعلم بهِ احد فاستقبلهُ عمهُ بالبشاشة والاكرام وبعد ما جلسا حيناً يتحادثان قال لهُ عمهُ هلمَّ معي لاطلعك على بعض ما يتعلق بامر ميراثك قبل اجرآء التسليم وقام فانطلق امامهُ وتبعهُ ارنست فسار بهِ في دهليز ينتهي بسُلَّمٍ ملتفّ فنزلاهُ ووصلا الى حجرةٍ مظلمة ولما صارا على بابها قال العم قد علمت يا ارنست انك ستكافئني بالطرد بعد اعتنآئي بك فقد اعددت لك هذا المحل لعلهُ يرجع اليك الافكار الثاقبة . ولما قال ذلك جمع قواهُ ودفع ارنست الى داخل الحجرة ثم اقفل الباب تاركاً ذلك المسكين في الظلمة الحالكة واليأس ينادي ولا مجيب ويدعو وليس من يسمعهُ . وكان عمهُ يرسل اليهِ طعام كل يوم مع خادمهِ الخاص وامين اسرارهِ

وكانت أليس تعد الدقائق لرجوع زوجها وهي تخالها اعواماً حتى اذا انقضى الاسبوعان ولم يرجع اقلقتها افكارها وشعرت بويلٍ عظيم ثم انتظرت اياماً اخرى بدون طائل فجعلت تبحث عن المستر هرمن فلم تجد من وقف لهُ على خبر . ونفدت الدراهم القليلة التي ابقاها لها ارنست ثم استُحقّت اجرة البيت فادركت المصاب الذي وصلت اليهِ وجعلت تبيع رياشها وثني الى ان لم يبقَ عندها قوت ليلة فخرجت من البيت باكيةً حزينة وهي لا

تدري الى اين تذهب او اين تبيت ليلتها. فجعلت تقرع ابواب الكرام طلباً للخدمة او لتعليم الموسيقى التي كانت قد اتقنتها واتفق اخيراً ان رأتها سيدة سائحة فرقّت لها واخذتها مربيةً لابنتها فجعلت تسافر مع تلك السيدة من بلدةٍ الى اخرى وهي لا تفترعن البحث عن المسترهرمن فلم ينبئها احد بوجودهِ. وبعد ان مضى عليها بضعة اشهر ودنت ساعة ولادتها علمت بذلك سيدتها فاستآءت وغلب عليها سوء الظن بأليس وانها لم تخدم عندها الا لتستر نفسها فنقدتها اجرتها وطردتها من البيت فذهبت المسكينة منكسرة القلب فاكترت لها غرفةً في بيتٍ وفي اليوم الثاني ولدت ابنة ودعتها اثيلين. وكان كثيرون بعد ذلك يرون أليس ويطلبون التزوج بها لجمالها المفرط وحسن صفاتها غير انها لم تكن لتنسى زوجها وان لم تكن على بينةٍ من غيبتهِ الطويلة عنها ولا تدري هل كان صنيعهُ ضرباً من الخداع ثم تركها ام اصابهُ مكروه فمات ولذلك استمرّت تدأب في الشغل هنا وهنالك لتعيش مع ابنتها بدون ان تتذلل لاحد

اما ارنست فبقي مسجوناً في بيت عمهِ ستة اشهر وهو كلما خطرت أليس في بالهِ يضيق صدرهُ فيضرب باب غرفته ويلطم جدرانها فلا يجيبهُ الا الصدى . وفي نهاية الستة الاشهر وافاهُ الخادم الذي اعتاد ان يجيئهُ بالطعام ففتح الباب وقال تفضل يا مولاي الرد الى القصر فاستغرب ارنست ذلك واستفهمهُ عما يقول فاخبرهُ ان عمهُ قد توفي في ذلك الصباح. فخرج ارنست من سجنهِ وهو لا يصدّق بالفرج وبعد ان قضى عمهُ واجب الدفن اعلن رجوعهُ الى البلاد واستولى على ازمّة الاملاك والاشغال ثم اقام وكيلاً

ينوب عنهُ في اشغالهِ وتوجه على جناح البرق الى درمستاد فقصد البيت الذي كان ترك فيهِ أليس فوجدهُ فارغاً وعلم انها كانت قد تركت البيت منذ اسبوعين اذ لم يكن في يدها ما تفي بهِ اجرتهُ فشعر كأن سهماً اخترق قلبهُ وطفق يبحث ويجدّ في التنقيب عنها ثم جعل يدور من مدينةٍ الى اخرى فزار مدن المانيا وفرنسا وانكلترا فلم يحصل على اقل املٍ في لقآئها وندم على عدم اخبارها باسمهِ الحقيقي لتسأل هي عنهُ فعاد الى قصرهِ آنساً حزيناً

وبعد عشر سنوات من هذه الحادثة ذهب ارنست كعادتهِ سنوياً الى باريز لقضآء اشهر الشتآء فيها واتفق ان سار يوماً يتمشى في ضواحي المدينة يناجي افكارهُ فاستدعى انتباههُ صياح فتاةٍ فنظر واذا بجواد ينهب الارض وعليهِ فتاةٌ صغيرة قد جمح بها ولم تستطع يداها الضعيفتان على ضبطهِ . ورأى ارنست الخطر المحدق بالفتاة وان الجواد يزيد هيجاناً فتنحّى الى جانب الطريق حتى اذا قاربهُ الجواد فاجأهُ بضربةٍ من عصاهُ على ام رأسهِ فوقف الجواد بغتةً ثم اضطرب وسقط الى الارض وسقطت الفتاة بين ذراعي ارنست مغشياً عليها فاستعمل لها الوسائط الممكنة حتى عادت الى رشدها ووجدت نفسها على يدي ارنست ولما وقع نظرها على وجههِ اللطيف المنعطف عليها بحنو الاب شعرت بميلٍ اليهِ وحبٍّ عظيم فجعلت تشكرهُ بأرقّ العبارات . وكان ارنست يتأمل في وجه الفتاة فرأى فيها جاذباً علّق فؤادهُ بحبّها وعرض عليها ان يوصلها الى بيتها فشكرتهُ وفيما هما كذلك اذ وفد عليهما الخادم وكان قد جد في اثرها فسلمتهُ الجواد وسارت مع ارنست حتى بلغا طرف حديقةٍ كبيرة محيطة بقصرٍ فاخر فقالت الفتاة هذه

ارض ابي وجعلت تتخلل مع ارنست تلك الاشجار الى ان وصلت الى مقعدٍ خشبي حول مآءٍ يجري فجلست الفتاة تحادث ارنست . ولما همَّ بمفارقتها قالت لا اتركك تذهب ما لم تعدني انك تأتي كل يومٍ لتراني هنا في مثل هذا الوقت . وكان في كلامها البسيط وعواطفها الطاهرة ما قاد اليها ارادة ارنست فوعدها وانصرف فنادتهُ وقالت لكن قبل ذهابك ارجو ان تعرّفني باسمك لاحفظهُ مع جميلك الذي صنعتهُ معي . قال اسمي اللُّرد ارنست وانتِ ما اسمكِ . فقالت اسمي اثيلين

وكان بعد ذلك يوافي الفتاة في اكثر الايام كما وعدها فتقصّ عليهِ اخبار طيورها والحيوانات التي تربيها وهو يتلو عليها بعض النوادر والروايات الى ان جآءَ يوماً متأخراً عن الميعاد وكانت بانتظارهِ فسمعها من بعيد تغني الاغنيَّة التي كان قد الَّفها في المدرسة وعلَّمها لأَليس في شهر زفافهِ وحالما بلغ صوت الفتاة سماعهُ ارتعد جسمهُ وصعد الدم الى وجههِ ولما فرغت من الغنآء اقترب منها وهو حائر فقال لها لقد احسنتِ الغنآء ولكن من علمكِ هذه الاغنيَّة . قالت والدتي . قال وما اسم والدتكِ . قالت أليس . فشعر ارنست ان الارض تغور تحت قدميهِ فتجلد ثم قال لها وما اسم ابيكِ قالت يظن الناس ان ابي اللرد دربي صاحب هذه الاملاك والحقيقة ان اللرد دربي توفيت زوجتهُ وهو شيخ ولما كان لا بد لهُ من احد يعتني ببيتهِ وكنت انا ووالدتي ساكنتين في بيتٍ صغير نعيش من اشغال والدتي وتعليمها الموسيقى اتفق مع والدتي ان تأتي الى بيتهِ وتتولى تدبير شؤونهِ فهي بالحقيقة مدبّرة البيت وليست صاحبتهُ . اما ابي فكثيراً ما كانت والدتي ولم تزل تخبرني

عنهُ وتعلمني ان اتضرع الى الله ان يرجعهُ الينا لانهُ كما قالت لي ذهب يوماً قبل ان اولد انا ولم يرجع بعد فلا نعرف هل تركنا لنموت او مات هو . فقال ارنست وهل اخبرتكِ والدتكِ عن اسم ابيكِ . قالت كيف لا وانا اصلي كل يومٍ لرجوع ابي المستر هرمن . فلم يعد ارنست يتمالك نفسهُ فجعلت دموعهُ تتساقط كالسيل ثم قال لأثيلين وهل والدتكِ الآن في المنزل . قالت نعم . قال هل لكِ ان تدعيها لمواجهتي فان عندي شيئاً اقولهُ لها عن المستر هرمن لاني اعرفهُ جيداً . فاسرعت اثيلين لتعلم والدتها وهي لا تصدق انها تسمع شيئاً عن والدها وبعد قليل عادت والى جانبها سيدة مرتدية بثياب سوداء حريرية . ولما اقتربتا من ارنست تفرّس ملياً في وجه تلك السيدة ثم صاح اشكرك يا الهي فقد وجدت زوجتي ثم وقع الاثنان بعضهما على عنق بعض . ولما كُفكِفت الدموع اخبر كلٌّ منهما صاحبهُ بما اتفق لهُ من الحوادث في مدة الفراق وعلمت أليس ان ارنست محافظ على محبتها كما حافظت هي واتفق الاثنان ان يخبرا اللرد دربي بالامر وتعود أليس الى زوجها اللرد ارنست مع ابنتها . وفي نفس ذلك المساء توجه ارنست لمقابلة اللرد وقصّ عليهِ الحادثة الغريبة التي جرت لهُ منذ احد عشر عاماً فتعجب اللرد الشيخ وقال اشكر الله ان زوجتك لم تُمسّ بسوء كل هذه المدة وقد حفظها الله لك . ثم هنّأ الزوجين بعود اجتماعهما وفي الند ودّعاهُ وعاد ارنست الى املاكهِ بانكلترا مع زوجتهِ وابنتهِ اثيلين وعاشوا جميعاً بتمام السعادة والصفاء